

الخصائص الحضارية والثقافية لاجتمع الكوفة خلال القرن الأول الهجري

أ.د. صالح جبار القرشي

أستاذ الدراسات العليا والأولية في جامعة الكوفة - كلية الفقه

مقدمة البحث :

أن دوافع الرغبة لدى كل أمة من الأمم أو شعب من الشعوب مهما تكن لغته أو لونه أو اتجاهاته الحضارية في إستنهاض عوامل الحضارة لديه وخلق حالة من الرقي والتطور لأفراده تُعدُّ من أهم سبل النهوض ضد عوامل النكوص والتقهقر والعرقلة لتقدم تلك الأمة أو ذلك الشعب.

كما ان وسائل الإسراع في الانخراط ضمن مسالك ذلك التطور يُعدُّ رغبة جامعة لدى هذه التجمعات البشرية لتحافظ على أسس بناء ذلك التراث لديها، فتراث الشعوب وراثتها الفكري من أهم مسببات التسريع الحضاري الذي يعدُّ إحيائه حالةً صحيةً تتميز به الأمم الزاحفة نحو ركب الحضارات لكسب عوامل الزمن في الهيمنة على أعلى مراتب النجاحات التي تمكنها من فرض هيمنتها القيادية في احتجاز عناوين ذلك الرقي التي تنقلها إلى مراتب متقدمة من انتصاراتها بهذه المجالات.

والمجتمع الكوفي ومنذ الحقب الزمنية الموعلة بالقدم يعد واحداً من المجتمعات التي كتب لها النجاح والتميز والتمكن من إعتلاء صهوة المجد وقهر عوامل التقهقر الحضاري أو الرجوع إلى الخلف، فقد سجّل هذا المجتمع أرقاماً لا بأس بها من الاعتلاء وارتقاء سلالم المجد قبل غيره من الأمم رغم العوائق التي واجهته.

لقد استطاعت (الكوفة) ان تبني صرح مجدها برجالها الذين غاصوا مجاهدين مضحين في سبيل إحياء مجدهم وتراثهم، حيث ارتقى هؤلاء الرجال سلالم المجد والسمو والاصطفاف معاً من أجل كسب الظروف القاهرة واستعدادهم لقبول المنازلة التي من شأنها وضع مدينتهم بالمكان اللائق وموقعه المرموق.

أن خصال هذا المجتمع قد رافقتها ظروف غاية في الإشكالات والصعاب التي لو عُرِّض لها غيره من المجتمعات سواء كانت على المستوى العسكري أو السياسي أو الاقتصادي لنخرت قواه وأردته ضحية لا حراك فيها، ولأصبح مجتمعاً ينوء من ثقل الكوارث التي لا يمكن ان توصله إلى طريق النجاة.

ونظراً لتمتع (الكوفة) بموقع استراتيجي متميز قد لا يتوفر لغيرها من الأمصار مما فتح الآفاق أمامها في كسب سمعتها اللامعة بين المواقع والبلدان وعلى مختلف الأصعدة سواء كانت دينية أم عسكرية أم إدارية أم اجتماعية حيث ان هذه الاتجاهات منحته صبغةً لمع من جرّائها اسم (الكوفة) في سماء الرقي والتقدم والازدهار.

وتدور الأحداث و(الكوفة) تتعرض إلى العديد من العوامل التوقيفية لعجلة حضارتها بسبب الحقد والحسد عليها كونها استحلّت المراكز الأولى في التقدم بكل جوانب الحضارة، لذلك فقد اشتغل المناوئون لمجدها بوضع عصيهم بعجلة تقدمها لعرقلة وصولها إلى مكان تقدمها المرموق.

ولعل تفردّها بميزات تفتقر إليها بقية الأمصار، جعل منها مدينة تتعرض باستمرار لأعتى وأقسى محاولات الإقصاء وإبعادها عن ركب الحضارة بسبب هذا التفرد الذي اشرفنا إليه .

لذلك كثرت الإساءة اليها من قبل الأعداء وحوربت بأنواع الأسلحة، فكثرت حروبها، وقُتلت رجالها، وقِيضت حدودها، واستلبت خيراتها، ونهبت أموالها، وقيل ما قيل من وصف كاذب وتدليس وجور مقيت بحق أهلها الذين أحبهم أمير البيان أمير المؤمنين (عليه السلام) وأبنائه الميامين من بعده (عليه السلام) .

فكان حقاً علينا كباحثين منصفين ان نُكثِر من الاهتمام ببقعة اتخذها الإمام علي (عليه السلام) عاصمة لمجد الإسلام لتكون بحق : ((رمح الإسلام وجمجمة العرب وكنز الإيمان)).

وبناءً عليه فقد نضع أمام القارئ الكريم بحثنا المتواضع هذا ليجد من خلاله حالة مشرقة لهذه المدينة المعطاء على مر الدهور، هذا البحث الذي يحمل بين طياته المفاهيم التالية:

١- المبحث الأول: جوانب التميز الفكري لمجتمع الكوفة لما بعد عصر الرسالة، وقد اشتمل على مضامين وأبعاد الثقافة والفكر والتطلع لدى الكوفيين آنذاك ودور المراكز العبادية والعلمية في إحياء عوامل التطور، وأثر ذلك في ترصين الواقع الاجتماعي لسكان مدينة الكوفة وتمتين اقتصادها من خلال تعاون الشرائح الاجتماعية المختلفة في الحياة العامة على وفق نظرة الدين الحنيف.

٢- المبحث الثاني: وقد تضمن بياناً في جوانب التطور بمجال الاعمار لمدينة الكوفة خلال القرن الأول الهجري

٣- المبحث الثالث: واشتمل على إيضاح تطور (الكوفة) في شتى مجالات العلوم ومنها علوم التفسير واللغة وعلوم الحديث وعلى وفق المناحي التالية.
أ- استعداد المجتمع الكوفي لتقبل الجديد في الانفتاح على العالم كونها بيئة نموذجية مناسبة لذلك.

ب- تطور الكوفة عسكرياً بسبب كونها مكاناً تتوافر فيه ضوابط المدينة المتكاملة

ج- المجالات الإبداعية لخلق رجيل من فحول المفسرين والمحدثين والعلماء.

بعد ذلك ختمنا البحث بأهم نتائجه التي توصل اليها .

وفقنا الله لنيل رضاه وخدمة العلم والسير على وفق منهجه وسلك طريقه .

المبحث الأول : جوانب التميز الفكري لمجتمع الكوفة فيما بعد عصر الرسالة ومردوداته
الإيجابية

مما لا يخفى على كل ذي لب بأن (الكوفة) قد تحوّلت إلى اكبر مركز إسلامي ثقافي في زمن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) حيث إنتقلت إلى أوسع مركز مهم للتشيع، وقد تأثرت (الكوفة) إبان تلك الفترات بفكر أهل البيت (عليهم السلام) فيما بعد ولاسيما الفكر الصادقي الذي تفجر على يد الإمام السادس من أئمة أهل البيت وهو الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، حيث عاشت الكوفة في زمن الصادق (عليه السلام) بأعلى صور النقاء الفكري حيث إنتعشت فيها صور المعرفة والبحث العلمي الذي كان الإمام الصادق (عليه السلام) امتداداً لعصر جده الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في هذا الانتعاش الفكري والثقافي والمعرفي عموماً.

كما ان توافر أسباب هذا الانتعاش أدى إلى بزوغ شمس المعرفة والفكر في أرجاء الكوفة بسبب الحضور الجماعي لأساطين العلم والمعرفة العلمية والأسر النابغة المعروفة بعلمها وثقافتها، وقد تمثل هذا التطور العلمي على يد ألمع الرجال الذي مثلوا هذه الأسر أمثال أسرة آل أعين العربية الأصيلة التي ساهمت مساهمة فعالة في تطور ونشر علوم الحديث فيها، إضافة إلى الاثار الايجابية الأخرى التي تركها وجود مرقد الإمام علي (عليه السلام) فيها

مما ساعد على كثرة الجموع العلمية الوافدة إلى الكوفة ونشوءها كمركز علمي احتل المقدمة بين المراكز العلمية المنتشرة بالعالم آنذاك والى يومنا هذا. لقد ساهمت (الكوفة) برجالها واساطينها العظام على صناعة جو ملئه التباحث والتحاوور والتدارس بين الطلبة والباحثين وطلاب المعرفة من كل حذب وصوب. لقد كانت (الكوفة) تمثل مركز الثقل للتشيع لأنها كانت المعقل الرئيس لركب آل محمد (عليه السلام) إذا قورنت مع المراكز المعرفية والعلمية المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي الأخرى كبغداد والبصرة والمدينة واليمن وجبل عامل والري وقم ونيشابور والأهواز وخراسان وهمدان وكركان وغيرها.

لقد كان لأساطين العلم من رجالات الكوفة دور كبير في إحياء علوم أهل البيت (عليه السلام) لارتباطهم مع أهل البيت (عليه السلام) عقائدياً من جهة، ولقرب الكوفة من الحجاز الذي يعد معقلاً لحضور أئمة أهل البيت (عليه السلام) من جهة أخرى، وكان لذلك دور كبير في إحياء الحركة العلمية بشكل جلب الأنظار إليها، ما دعى إلى مضاعفة الأعداد تدريجياً لرواة الحديث حتى أصبح عددهم يضاهي الأعداد لمدارس الحديث الأخرى بأجمعهم إن لم يكن يفوقهم، فصارت سلسلة أسانيد روايات الحديث تشكل عدداً كبيراً والذين مثلوا مدرسة الكوفة الحديثية، وأصبحت الكوفة يشار إليها بالبنان كمدرسة حديثية متميزة.

وكان لمدرسة الحديث الكبرى في الكوفة والمتمثلة بـ(مسجد الكوفة) أكبر الأثر في صناعة التطور الحديثي الذي شهد له القاصي والداني فأصبحت (الكوفة) مركزاً لنشر الروايات وتدريس مشايخ الحديث^(١).

وبذلك صارت الكوفة معقلاً مرموقاً لمحدثي مدرسة أهل البيت (عليه السلام) حيث عاش في أروقتها مئات العلماء الشيعة مما دفع عدداً كبيراً رئيساً للتشيع في العالم، ولذلك كان المسار العام عند العلماء آنذاك أنه إذا أريد تعريف شخص بأنه (شيعي) فإنهم ينسبونه إلى الكوفة ويقولون عنه أنه كوفي المذهب^(٢).

لقد قلب تواجد الإمام علي (عليه السلام) على أرض الكوفة موازين القوى في خلق انتقاله جديدة في الحضارة والفكر، حيث كان لبصماته أكبر الأثر في إرساء الجذور الأساسية لقاعدة عريضة من المعرفة على المستويات كافة ويظهر ذلك جلياً من خلال قوله (عليه السلام) لكتابه عبد الله بن أبي رافع: ((ألقى دواتك، وأطل جلفه قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف فإن ذلك أجدرُ بصباحة الخط))^(٣).

وكذلك قوله حينما كتب إلى عماله: ((أدقوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا عني فضولكم، واقصدوا قصد المعاني...))^(٤).

وإذا دققنا النظر بهذه الروايات وأمثالها فإننا نجد فيها البعد الصائب لترصين وبناء ورسم الخارطة الحقيقية للموسوعة الفكرية العالية المضامين التي أرساها بكوفته الغراء إبان تلك الفترة التي كانت الكوفة بأمس الحاجة إليها للخروج من عنق الزجاجة. حيث كان (عليه السلام) يحرص أشد الحرص على صيانة العلم والمعرفة ورفد القاعدة الأساسية لبناء حضارة عريقة واسعة الأفق ورصينة المضامين.

ويقول أستاذنا الكبير البروفيسور الأول المتمرس الدكتور محمد حسين علي الصغير بهذا الصدد بأن الفضل يعود بالدرجة الأولى إلى آثار القرآن الكريم ولغته الشريفة التي انطلقت أصالتها الكبرى من الكوفة وبابل وأن البشرية قد تدفقت في الكون منها^(٥)، حيث ((أن انطلاق حضارة العالم كان من الكوفة الغراء وأرض الرافدين))^(٦).

وتشير الأحداث والوقائع التي مرت بها الكوفة إلى اهتمام المسلمين فيها ببناء المواقع العلمية بواجتها إضافة إلى عدها موقعاً متميزاً لحكومتها وحفظ مالها وعسكرها وطعامها وسلاحها.

فكان (مسجد الكوفة) متمثلاً بالاتجاه نحو هذه المناحي للمدينة لانشاء مركز ثقافي إسلامي متمثلاً بجامعها الكبير الذي صار رمزاً لجامعتها العلمية فيما بعد. وبما أن للمعابد أكبر الأثر في نفوس المسلمين فكان لهذا المسجد قدسية كبيرة في نفوسهم، وكان له الأثر الكبير في بداية تخطيط الكوفة^(٧).

فكان مركزاً علمياً دينياً روحياً سياسياً اجتماعياً وثقافياً^(٨)، مما دعى إلى عدّه مدرسة حضارية كبرى ومحطاً مرموقاً لأنظار المسلمين، كونه يمثل رمزاً للدولة الإسلامية^(٩). لقد أصبحت الكوفة إبان فترة خلافة الإمام علي (عليه السلام) مهداً للشيعنة^(١٠)، بل حاضرة لخلافة علي بن أبي طالب (عليه السلام)^(١١)، ثم من بعده لخلافة ابنه الحسن (عليه السلام) وهي الخلافة التي اتسمت بقصرها زمنياً^(١٢).

المبحث الثاني: جوانب التميز المعماري للكوفة إبان القرن الأول الهجري

أن الإشارات التاريخية لجوانب التطور المعماري والهندسي الذي رافق إنشاء الكوفة يؤشر على مدى عمق التطور الفكري في مجالات الأعمار والهندسة وفن البناء الذي دلت عليه الآثار التي لا تزال شاخصة إلى يومنا هذا وفي هذه المجالات الكبرى .

ولعل سلامة البيئة وجمال الموقع الذي تميزت به الكوفة كان مدعاة لنجاح عمليات الفنون بكل اتجاهاتها سواء كانت عمرانية أم هندسية أم اجتماعية أم اقتصادية، حيث كان لتوفر منابع الثروة الفكرية والمالية معاً دفعاً لأن تكون هذه المدينة من المدن التي يشار لها بالبنان في التطور السريع نحو مفاصل الحياة عموماً.

لذلك عدت الكوفة أنموذجاً متقدماً لنشوء الأمصار آنذاك ومثالاً متطوراً لنجاح تلك المحاولات التي تقدمت على وفق ثوابتها من البلدان والمدن، حيث ان عذوبة مائها وطيب هوائها وتوافر بيئتها المناسبة دفعت العرب إلى اتخاذها مسكناً^(١٣)، كما عدّ صاحب المسالك والممالك الكوفة من خطط قبائل العرب وأكد بأن هوائها أصح ومائها أعذب من ماء البصرة وهي على الفرات ... وقريب من الكوفة قبر علي (عليه السلام)^(١٤).

وبناءً على جماليات هذه المناحي فقد أطلق عليها أسماءً تنم عن الإفصاح عن تميزها حضارةً وفكراً، ومن هذه الأسماء (خد العذراء) لجمالها، حيث طيب زرعها إذ كانت الخزامى تنبت في تربتها الطيبة وكذلك الأقحوان والشيخ والقيصوم والشقائق^(١٥).

ويرى الدكتور يوسف خليف أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أدرك بثاقب فكره أهمية العامل الجغرافي في اختيار البيئة التي تصح لنزول العرب المجاهدين الذي طالما حرص

ان يظلوا محتفظين بنشاطهم وحيويتهم وقوتهم التي خرجوا بها من الصحراء، وأدرك أيضاً أنه لا تصلح لهم إلا بيئة جغرافية تشبه البيئة التي خرجوا منها^(١٦).

ولكن الأمر ليس كذلك إذ إننا نخالف ما ذهب اليه الدكتور خليف إلى ان الخليفة عمر أدرك انه لا تصلح لهم إلا بيئة جغرافية تشبه البيئة التي خرجوا منها لنقول ان دوافع عمر الأساسية لتمصير الكوفة هو إنشاء مدينة تختلف تماماً عن المدن التي خرج منها المجاهدين وسوف لن يتم ذلك إلا باختيار مدينة خالية من عوامل الاختلاط البيئي إضافة إلى مدينة تخلو حتى من البق والقوارض، حيث وقع الاختيار لتوافر تلك الثوابت التي رآها الخليفة على أرض الكوفة لهوضها بشروط إنشائها كما رآها الخليفة عمر.

ولعل توافر تلك الظروف المناسبة كان مدعاةً بالدرجة الأساس إلى تغيير ما تم بناؤه من بيوت الكوفة من مادة القصب المعرضة لعوامل التهلك والانهيار وعدم القدرة بهذا النوع من البناء على مواجهة الظروف الصعبة كالرياح والأمطار وارتفاع مناسيب المياه، إضافة لتعرض هذه المادة إلى الاشتعال والحريق بأية لحظة كانت، وفعلاً حدث ذلك فقد شب حريق في تلك البيوت القصيبة فاحترق ثمانون عريشاً ولم يبق فيها قصبة^(١٧).

إن الإقبال على الكوفة والسكن فيها كان يعود لعدة أسباب تجتمع في كونها مدينة تتوافر فيها شؤون الحياة التي تدعو إلى كونها أنموذجاً متقدماً لمضامين التطور والابداع الفكري، حتى أخذت في النهاية صورتها التي نعرف لها في تاريخ الحضارة الإسلامية^(١٨).

وقد عبر المؤرخ الكبير اليعقوبي بهذا الصدد بأنها ((مدينة عامرة جليلة))^(١٩)، على حد قوله.

ولأن الكوفة تعد معقلاً لاهتمام نظرة الدولة الإسلامية وبالتركيز تلك التي تتأتى من خلفاء العصر الراشدي وبالذات اتخاذها عاصمة للدولة الإسلامية من قبل الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، كل ذلك دعى ان يكون المنحى لانشاءها منحى إسلامياً يتجذر من خلاله الأبعاد الصادقة للشريعة الإسلامية ومقاصدها المقدسة، فكان تأسيس المسجد فيها أول اهتمامات الحكومة الإسلامية كون ما للمساجد والمعابد من قدسية كبيرة في

نفوس أهلها والوافدين إليها، لذلك كان المسجد أول ما تم تخطيطه فيها وكان مركزاً يمثل اتجاه الإسلام بمعناه الحقيقي والى يومنا هذا.

وقد بدأت بوادر إنشاء جامع الكوفة ومسجدها المعظم بصدور أوامر سعد بن أبي وقاص للسائب بن الأقرع الثقفي وأبي الهياج بن مالك الأسدي، إضافة إلى توجيه أحد الرجال الرماة لتنفيذ الأمر^(٢٠).

حيث قام هذا الرجل الرامي برمي أربعة سهام إلى الجهات الأربع لتحديد مواقع المسجد المترامية، وفي هذا إشارة نستنتج منها بأن المسجد المقام فيها حالياً ليس على السعة التي أقيم بها سابقاً حيث تشير النصوص بمعانيها إجمالاً أن مساحة المسجد ربما تكون أضعاف مساحته الحالية، حيث السهم المرمي من قبل الخبير بشؤون الرماية إنما قد يصل إلى (٥٠٠) متر أو ربما أكثر كما تشير نتائج المعارك الطاحنة التي ينقل لنا التاريخ تفاصيل حدوثها.

وعلى هذه المساحة التي قد لا نراها متناسبة مع ما رسم لها من قبل المختصين آنذاك أقيم المسجد وبجانبه دار الإمارة وبيت المال الذي أقيم مقابلاً للمسجد^(٢١).

وبهذه المواصفات يستمر كادر الأعمار الذي تمتلكه الدولة آنذاك بإجراءات بناء دار الدولة، حيث يذكر لنا البلاذري بأن دار الإمارة إنما تم إنشائه في الفضاء المتصل بالمسجد^(٢٢)، كما ذكر الطبري بأن سعداً ((قد بنى في الموقع الذي خطوا فيه للقصر قصرأ بجيال محراب مسجد الكوفة اليوم فشيده وجعل فيه بيت المال وجعل الدار قبلته))^(٢٣).

ويظهر من هذه الرواية أن سمة التميز الحضاري في إقامة البناء إنما كان على غاية من الروعة وتحري الدقة في التخطيط واستعمال الفن المعماري بمواصفاته الهندسية الراقية حيث يشير الخبر بأن القصور كانت تقام جنب القصور متداخلة مع بعضها حتى يسند القصر قصرأ آخر من جانبه المقابل للمسجد الجامع، ثم أن محاولة القيام ببناء بيت المال وسط هذه الأبنية كونه يمثل روح الاقتصاد الإسلامي ايستقبل الدار التي تم تشييدها جنبه، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على استعمال أرقى أساليب الهندسة في فن البناء وإنشاء القصور ودور الدولة ومؤسساتها المهمة متداخلة بعضها ببعض الآخر

للاطمئنان على سلامتها، ولا ننسى بأن (ماسنيون) قد قام بتحديد موقع القصر (دار الإمارة) بأنه كان يقع في الواجهة الجنوبية من المسجد مع انحراف نحو الشرق^(٢٤). هذا من جانب ومن جانب آخر فقد تعددت الوسائل والطرق في الابداعات الهندسية والمعمارية لشؤون الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الكوفة، فعلى مستوى الطرق وبناء السكك وإقامة المحلات التجارية أيضاً، شهدت الكوفة تفناً انفردت به وتميزت بعظمتها وجماليتها.

ويبدو بأن الحاكم الإسلامي كان يراقب التطور الحضاري لمواقع الدولة من حيث الإنشاء والبناء حيث نقل بأن الخليفة عمر بن الخطاب وافق عندما طلبوا منه أن يستعملوا اللبن في البناء بدلاً من الأساليب الأخرى في البناء والتي تعد أقل تطوراً وحضارة، كاستعمال الخيم والقصب وسعف النخيل وما شابه ذلك، وينقل عن موافقته بقوله: ((افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة آيات ولا تطاولوا في البناء))^(٢٥).

ومع تطور الحضارة المعمارية للكوفة كانت مقسمة إلى أعشار، وبهذا التقسيم قد تصعب السيطرة على تلك المناطق لسعتها وانتشارها مما حدا بالحكومة ان تقسمها أسباعاً سميت بـ(الأسباع) تيسيراً للسيطرة عليها عسكرياً ومالياً وتسهيلاً لاحاطتها بالتعبئة المنظمة على تلك الأسباع واستحضاراً لتوزيع الغنائم والأعطيات عند حدوث مصادمة عسكرية مع العدو أن حدثت أو عرضت المدينة إلى هجوم .

ولعل هذا الإجراء يشير إلى تقنية التقليل في الحسائر والامدادات المالية للمدينة خصوصاً في بداية الإنشاء مما يقلل من الصرف الذي قد يثقل كاهل الدولة.

وقد كان لهذه التقسيمات السبعية والعشرية سمةً قبائليةً أكثر مما هي تنظيمية تخص التنظيمات الاجتماعية المدنية، حيث اتسمت هذه التقسيمات ببروز الانفرادات التي تحتص كل قبيلة بها والتي قد تتركز بواحد من الأسباع أو الأعشار، مما حدا بهذه القبائل أن تخصص جبانة (مقبرة) خاصة بها كجبانة كندة، وجبانة السبيع، وجبانة سالم، وجبانة الصائدين ونحوها^(٢٦)، وهذا التقسيم الذي طفحت به صفة القبيلة لا يعني ان القانون والدولة قد غابت عن الحضور بل ان الدولة كانت مع القبيلة في كثير

من الأمور لأن القبيلة كانت وقتئذ تمثل المومون الرئيس واليد اليمنى للحكومة فى اغلب أمورها باعتبار ان الإسلام جاء ليقوم الأمور وليس لتعقيدها. وبتطور الدولة تواجدت الأسواق على اعتبار ان السوق يعنى حاجة الناس إلى تنظيم عيشهم وحاجتهم إليه لأنه يعنى تنظيماً للحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ولتحقيق التعاون بين هذه الطوائف فى نظم التعايش^(٢٧)، وكانت تلك الأسواق تعج بتواجد التمارين وبيعة الصوابين وغيرها^(٢٨).

المبحث الثالث: التميز العلمي (للكوفة) وتألقها بعلوم القرآن وتفسيره

لعل الإشارة إلى هذا الجانب من التميز الذى أدى إلى النمو الحضارى لهذه المدينة يعدُّ صفحة جديدة من صفحات الرقى والتقدم العلمى لها والذى يعود الفضل به إلى اهتمام الإمام علي (عليه السلام) بالمنحى العلمى منذ محط أقدامه على ترابها وحتى مغادرته (عليه السلام) إلى الرفيق الأعلى، وهو بهذا الاهتمام قد أرسى حجر قاعدة واسعة لشتى العلوم فيها ومنها الاهتمام البالغ بعلوم القرآن الكريم وتفسيره وتلاوته، ولعل جواب عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) يفصح لنا عن مدى اهتمام الإمام علي (عليه السلام) بهذا المجال حينما سئل عن المقصود بقوله تعالى: {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} ^(٢٩)، فقال: (علي بن أبي طالب) ^(٣٠). ولعل كثرة ما روي عن العلم الجم الذى اشتهر به الإمام علي (عليه السلام) ومعرفته بأسرار القرآن الكريم ليس غريباً لأنه ربيب سيد الخلائق (صلى الله عليه وسلم) وتلميذه، حيث كان له كظله، فقد ورد الكثير من هذه الروايات وعلى مختلف الأصعدة العلمية والبحوث الموسوعية والمصادر والمراجع وهذا ما أجمع عليه الجمع الغفير بلا إشكال ولا شبهة، وكان (عليه السلام) قد زُق هذا العلم عن طريق فخر الكائنات محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم). وقد احتل كتاب (نهج البلاغة) وبقية ما روي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مساحات واسعة فى الثناء على القرآن الكريم والدعوة للعمل بموجبه والالتزام بنصوصه واتخاذ أوامره ونواهيه مقاصداً لترصين قيم الإنسان فى الأرض والسماء، فهو القائل (عليه السلام) بصدد ذكر القرآن :

((فالقُرآن أمرٌ زاجر، وصامت ناطق، حجة الله على خلقه، أخذ عليهم ميثاقه، وارتهن عليه أنفسهم، أتمَّ نوره، وأكرم به دينه، وقبض نبيه، وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به.

فعظّموا منه سبحانه ما عظم من نفسه، فأنه لم يخف عنكم شيئاً من دينه، ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلا وجعل له علماً بادياً، وآيةً محكمة تزجر عنه أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحداً، وسخطه فيما بقي واحداً...))^(٣١).

وقال (عليه السلام) في القرآن الكريم والحث على الالتزام به أيضاً:
 ((وكتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعز لا تهزم أعوانه...))^(٣٢).

ويلاحظ انه (عليه السلام) ومن خلال ذكره للقرآن الكريم في أعلاه، وصفه مرة بالصامت الناطق وفي الأخرى بالناطق، وإنما أراد بذلك (عليه السلام) انه ليس كبقية الكتب البشرية، فإن كان من نسج بشر فلا يتصف بهذه الصفات لأنه من ترك مات ومن مات دفن في حين أن كتاب الله لا يموت وان اتفقت الناس على تركه.

وقد أفنى الإمام علي (عليه السلام) عمره بخدمة القرآن الكريم ومنهج النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا لا يختلف عليه اثنان، وجعل من الكوفة منطلقاً لبناء مدرسة قرآنية حديثة مرموقة من خلال حثه على فهم القرآن الكريم وعلومه، وقد سجلت كلماته استذكاراتاً لعظمة القرآن الكريم حيث وصفه بأحد أقواله: ((أن القرآن لا يعلم علمه إلا من طعمه، وعلم بالعلم جهله، وأبصر علمه واسمع صمته، أدرك به مأواه، وحي به إذا مات، فأدرك به الرضا من الله، فاطلبوا ذلك عند أهله، فأنهم في بيت الحياة، ومستقر القرآن، ونزل الملائكة، وأهل العلم الذين يخبرونكم عملهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم، هم الذين لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، قد مضى من الله فيهم حكم صادق، وفي ذلك ذكرى للذاكرين))^(٣٣).

ومما يرصن موقف الكوفة الايجابي في دعم الدراسات القرآنية والمعارف التفسيرية آنذاك فهي من أهم الأمصار الإسلامية التي كانت تعنى بتفسير القرآن العظيم وكان لها الفضل

الأوفر في ذلك، حيث عدَّ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رائداً لهذه المدرسة التفسيرية^(٣٤)، وكان ابن مسعود واحداً من الصحابة الذين كان لهم الباع الأوفر فيها بهذا المجال^(٣٥)، حيث خلقت هذه المدرسة في هذه المدينة قاعدة عريضة لهذا النوع من المعارف من قبل صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتابعيهم هناك^(٣٦).

وقد حفلت الكوفة بألعب أسماء المفسرين للقرآن الكريم الذين يقف على رأسهم الإمام علي (عليه السلام) عندما إتخذها عاصمةً للدولة الإسلامية ويروي عنه قوله: ((ما نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آية من القرآن إلا أقرئنيها، وأملاها علي، فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، ودعا الله ان يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه علي، وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا . وما ترك شيئاً علمه الله حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهى، كان أو يكون، وكتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً))^(٣٧).

وقد حفلت قائمة مفسري الكوفة إبان ذلك العهد بأعداد لامعة يقف بمقدمتها بعد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) عبد الله بن مسعود، سعيد بن جبير، زر بن حبيش، عبد الرحمن السلمي، سعيد بن زيد، مسروق الأجدع^(٣٨)، وغيرهم كثيراً.

وقد تمخضت الدراسات التفسيرية للقرآن الكريم في الكوفة عن ظهور رعييل كبير من العلماء المفسرين للقرآن الكريم في الفترات اللاحقة بعد مدرسة ابن مسعود، حيث كان لبصماته آثاراً واضحة في مدارس تفسيرية أخرى ظهرت في العصر الأموي على يد أساطين من علماء التفسير مثل علقمة بن قيس ومسروق بن عبد الرحمن الأجدع والأسود بن يزيد بن قيس وجابر بن يزيد الجعفي ومرة بن شراحيل الهمداني وعامر بن شراحيل الشعبي وابو مالك الغفاري، وكان الأخير يمثل الطبقة الثانية من نزلاء الكوفة، وعطية بن الحارث الهمداني - أبو ورق - وكان من مشاهير علماء التفسير في الكوفة^(٣٩).

أهم النتائج التي توصل إليها البحث

- ١- الكوفة مدينة عرفها التاريخ منذ أقدم العصور، حتى ان ذكرها سبق ما قال به التاريخ، حيث ذهب الكثير من العلماء إلى ان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أورد ذكرها مراراً.
- ٢- تبقى الكوفة لغزاً ورمزاً لا يُعرف كنهه ولم تعرف أسباب اختيار الإمام علي (عليه السلام) لها عاصمة للدولة الإسلامية والذي عرّض لتلك الأسباب لم يعد دقيقاً في تحليل الأسباب الحقيقية والمعقدة .
- ٣- تتجلى انفرادية الكوفة عن غيرها من الأمصار بأنها تتميز بجو صحراوي جميل عذب النسمات في حين تلاصقها قرى وبلدان تتميز بجو صحراوي بدوي مقيت.
- ٤- بين هذا وذاك يتوجب على الباحثين وأساطين العلم ان يغوصوا بأعماق معرفة هذه المدينة التي أحبها الله والأنبياء وسيد الأوصياء والأئمة الأطهار (عليهم السلام) والتي هي: ((رمح الله وجمجمة العرب وكنز الإيمان)).

هوامش البحث :

- ١- رضا مؤدب، تاريخ الحديث، ١١٢.
- ٢- محمد رضا شمس الدين، حديث الجامعة الدينية، ٦.
- ٣- الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، نهج البلاغة، الحكمة ٣١٥ .
- ٤- الصدوق، الخصال، ٣١٠/١.
- ٥- محمد حسين الصغير، الكوفة الغراء ارض الرسالات السماوية، ٧١.
- ٦- م . ن، ٦٠.
- ٧- رحيم شاووش علي، الحياة العلمية في مدينة الكوفة، ٩ .
- ٨- محمد حسين الزبيدي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في القرن الأول الهجري، ٢٤.
- ٩- يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة، ٢٥.
- ١٠- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣/٢.
- ١١- انظر /
- المسعودي، مروج الذهب، ٣٩/٢ .
- ١٢- م . ن، ٣٩/٢ .
- ١٣- انظر بصدد ذلك /
- الاصطخري، مسالك الممالك، ٨٤.

- ياقوت، معجم البلدان، ٣٤٨/٤ .
- ١٤- الاصطخري ، ٨٢ .
- وانظر /
- صالح القرشي، المواقع والبلدان في القرآن الكريم، ١٩٣ .
- ١٥- البلاذري، فتوح البلدان، ٣٤١/٢ .
- ١٦- حياة الشعر في الكوفة، ٢١ وما بعدها .
- ١٧- انظر /
- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٥/١ .
- ١٨- يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة، ١٥٧ .
- ١٩- البلدان، ٣٠٩ .
- ٢٠- انظر /
- البلاذري، فتوح البلدان، ٢٧٥ .
- وانظر كذلك /
- هشام جعيط، الكوفة نشأة المدن، ٩٢ وما بعدها .
- ٢١- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٤٤/٤ .
- ابن كثير، البداية والنهاية، ٧٣/٧ .
- ٢٢- البلاذري، فتوح البلدان، ٣٣٩/٢ .
- ٢٣- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٤٩/٣ .
- ٢٤- خطط الكوفة، ١٠٦ .
- ٢٥- ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ١٥٦ .
- ٢٦- انظر /
- البلاذري، انساب الاشراف، ٢٣١/٥ وما بعدها .
- الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ١٣٨
- ٢٧- انظر /
- يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة، ٣٢ .
- عباس علي هادي، خطط الكوفة في كتب الرحالة الاجانب، ٦٥ .
- ٢٨- انظر /
- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٤٨/٣ .
- ٢٩- الرعد/٤٣ .

- ٣٠- الحسكاني، شواهد التنزيل، ٣٠٧/١ .
وانظر /
- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ١٣٤/١٨ .
- ٣١- الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، نهج البلاغة، ٣١٤ .
- ٣٢- م . ن . ٢٣٤ .
- ٣٣- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٣٤/٢ .
- ٣٤- الذهبي، التفسير والمفسرون، ١١٩/١ .
وانظر /
- أبو اليقظان الجبوري، دراسات في التفسير ورجاله، ٧٥ .
وانظر /
- رحيم شاووش علي، الحياة العلمية في مدينة الكوفة، ٩٣ .
- ٣٥- الذهبي، التفسير والمفسرون، ١١٩/١ .
- السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ٢٢٢/١ .
- ٣٦- الذهبي، التفسير والمفسرون، ١١٩/١ .
- ٣٧- لجنة من الباحثين، موسوعة أحاديث أمير المؤمنين (عليه السلام)، ١١/١ .
- ٣٨- ابن حجر، تهذيب التهذيب، ١٠٩/١٠ .
وانظر /
- نصيف الجنابي، حضارة العراق، ٥٧/٧ .
- ٣٩- انظر /
- الذهبي، التفسير والمفسرون، ١٢٠/١ .
- ابن سعد، الطبقات، ٦/٦ وما بعدها .
وانظر /
- نصيف الجنابي، حضارة العراق، ٦١/٧ .
وانظر /
- رحيم شاووش علي، الحياة العلمية في مدينة الكوفة، ٩٥ .

مصادر البحث ومراجعته :

- ١-الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٩٧٤م.
- ٢- أنساب الاشراف، البلاذري(أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: سهيل زكار، منشورات دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- ٣- البداية والنهاية، ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ)، تحقيق علي شيري، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ٤-تاريخ الأمم والملوك، الطبري (محمد بن جرير ت ٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، ط ٤، لبنان، ٢٠٠٨ + الطبعة المحققة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ٥-تاريخ الحديث، الدكتور رضا مؤدب، تعريب الدكتور سيد عبد الكريم حيدري، مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، مطبعة أميران، قم، ١٤٣١هـ.
- ٦-تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي (أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الاخباري ت ٢٩٢هـ)، وضع حواشيه خليل المنصور، الطبعة الثانية، قم، ١٤٢٥هـ.
- ٧-التفسير والمفسرون، الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ٨-تهذيب التهذيب، ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢هـ)، مطبعة حيدرآباد، الهند، ١٣٣٢.
- ٩-حديث الجامعة النجفية، محمد رضا شمس الدين، مطبعة الأضواء، ١٩٨٦م.
- ١٠-حضارة العراق، أحمد نصيف الجنابي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م.
- ١١-الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، محمد حسين الزبيدي، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ١٢-حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، الدكتور يوسف خليف، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

- ١٣- الحياة العلمية في مدينة الكوفة خلال العصر الأموي ٤١هـ-١٣٢م، رحيم شاووش علي العرداوي، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م.
- ١٤- خطط الكوفة وشرح خريطتها، الدكتور لويس ماسينون Liues Masinun، تحقيق الدكتور كامل سلمان، ترجمة تقي محمد المصعبي، مطبعة الغري الحديثة، النجف الأشرف، ١٩٧٩م.
- ١٥- دراسات في التفسير ورجاله، أبو اليقظان الجبوري، بغداد، ١٩٧٧م.
- ١٦- شواهد التنزيل بقواعد التفصيل، الحسكاني (عبيد الله بن عبد الله بن أحمد - من اعلام القرن الخامس الهجري-)، تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت، ١٩٧٤.
- ١٧- الطبقات الكبرى، ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري ت ٢٣٠هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ١٨- فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٣٧٩هـ.
- ١٩- الكوفة الغراء ارض الرسالات السماوية، الأستاذ الأول المتمرس البروفيسور الدكتور محمد حسين الصغير، النجف الأشرف.
- ٢٠- الكوفة - نشأة المدينة العربية الإسلامية -، الدكتور هشام جعيط، الطبعة الثانية، مطبعة دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٢١- مختصر كتاب البلدان، ابن الفقيه (أبو بكر احمد بن محمد الهمداني ت ٣٤٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨-١٩٨٨م.
- ٢٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ)، دققها ووضعها وضبطها الأستاذ يوسف أسعد داغر، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٨م + الطبعة التي حققها محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة دار الكتب التجارية الكبرى، مصر، ١٩٦٤هـ.
- ٢٣- مسالك الممالك، الاضطخري (أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي ت ٣٤٦هـ)، مطبعة ابريل، ليدن، ١٩٣٧م.

- ٢٤- معجم البلدان، ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ت ٦٢٦هـ)، تصحيح وترتيب محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٠٦م.
- ٢٥- مقاتل الطالبين، الأصفهاني (أبو الفرج ت ٣٥٦هـ)، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٤٩م + النسخة المحققة شرح وتحقيق السيد احمد صقر، دار الزهراء، الطبعة الأولى، قم + نسخة مؤسسة النبراس في النجف الأشرف، د.ت .
- ٢٦- المواقع والبلدان في القرآن الكريم،. الأستاذ الدكتور صالح جبار القرشي، أطروحة دكتوراه أولى، بغداد، ٢٠٠٢م.
- ٢٧- موسوعة أحاديث أمير المؤمنين (عليه السلام)، لجنة من الباحثين، مطبعة دار السلام، ١٩٨٢م.
- ٢٨- نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، مطبعة دار إحياء التراث، ١٩٩٦م.
- ٢٩- وسائل الشيعة في تحصيل الشريعة، الحر العاملي (محمد بن الحسن ١١٠٤هـ)، تحقيق محمد الرازي، بيروت، د.ت .